



السؤال عن الشرّ واحد من الأسئلة المبكرة التي طرحتها الذهن البشري منذ استوطن آدمُ وذراته هذا الكوكبَ مليء بالشرور، وهو سؤال اشتغل به الفلاسفة منذ ثلاثة آلاف عام ولم يجدوا له جواباً كاملاً إلى اليوم، ولا يبدو أنهم سيجدون. لماذا؟ لأنهم يبحثون في المكان الخطأ. إنه سؤال كان ينبغي على الفلسفة رد النظر فيه "لعدم الاختصاص"، لأن جوابه يوجد في عالم آخر غير عالمها، إنه عالم الدين.

لقد كان نيوتن واحداً من أعظم الفيزيائيين، وربما كان أعظمَ فيزيائياً الأزمنة كلها على الإطلاق، ولو أنه سُئل عن الطبيعة المزدوجة للضوء (جُسيم-طاقة) فإنه سيقول: "الجواب ليس عندي، إنه ليس في قوانيني، اذهبوا فابحثوا عنه عند آينشتاين". هذا الجواب لا ينتقص من عبرية نيوتن ولا من علمه وقوانينه، ولكنه يعترض فحسب بأن منظومة قوانينه "الكلاسيكية" التي استطاعت أن تفسر عالماً كبيراً من الموجودات تقف عاجزةً عن تفسير عالم الكائنات الدقيقة، فعندما يصل الأمر إلى الفوتونات والبوتونات والكوراكات والأجسام تحت الذرية تتوقف قوانين نيوتن عن العمل وتنتقل إلى قوانين أخرى تقدمها فيزياء الكم ونظرية آينشتاين.

الأمر نفسه يُقال عن الحياة. {وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تُمنى}: في تلك اللحظة وُجد كيان مادي لإنسان سيعيش في الدنيا ما شاء الله له أن يعيش. {حتى إذا جاء أحدهكم الموتُ توفّته رسالنا وهم لا يفرون}: في تلك اللحظة انقطع

وجوده المادي على الأرض. بين اللحظتين تقدّم المعارفُ الطبية والعلمية والفلسفية للإنسان حلولاً لكثير من مشكلاته، لكنها لا تستطيع أن تتعامل مع الأحداث التي تقع قبل اللحظة الأولى وبعد الثانية ولا تجيب عن أسئلتها: أين كنت قبلاً وصولي إلى الدنيا؟ أين سأذهب بعد مغادرتها؟ لماذا وجدت فيها أصلاً؟ هذه "الأسئلة الوجودية" لا يستطيع أن يجيب عنها إلا الخالق الذي خلق الإنسان، ومنها أيضاً سؤال "الشر" المثير الكبير.

* * *

قبل أربعة وعشرين قرناً ارتكب الفيلسوف اليوناني أبيقور خطأً كبيراً ما يزال يرتكبه غيره إلى اليوم، فقد افترض مقدمتين وخلص إلى نتيجة. قال: إذا وجد إله كامل فلن يوجد شر. الشر موجود. إذن نستنتج أن الإله الكامل غير موجود.

الخطأ الكبير الذي ارتكبه ذلك الفيلسوف وغيره هو أنه نسوا أن يسألوا صاحب الشأن، فعنه الجواب. الكون مليء بالشرور؟ نعم. الله قادر عن منعها وتخلیص الكون منها؟ نعم. لماذا لم يفعل؟ لأنه لا يستطيع؟ معاذ الله، لا يكون إلهًا قادرًا إذن، وهو إله قادر. لأنه يحب الشر؟ معاذ الله، لا يكون إلهًا عادلاً رحيمًا إذن، وهو إله عادل رحيم. لماذا إذن؟ نقول لهم: أسلوه، لقد أرسل إلينا كتاباً أجاب فيه عن هذا السؤال وعن غيره من الأسئلة الوجودية الكبرى، فاقرئوه إن كنتم ترغبون في معرفة الجواب.

قال تعالى في كتابه العزيز: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فَتَتَّهُ، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}.

هذه هي العلة وهذا سبب وجود الشر في الدنيا: إنه فتنـة، ابتلاء، امتحان، لأن الدنيا –بالتعريفـ هي دار امتحان، فلو خلت من الامتحان لم تكن دنياً أصلـاً. إنه امتحان يمتحـن به الناس جميعـاً، فمن آمن وصبر نجـح ونجـا، ومن تسخـط وكفر كان من الخاسـرين. قال الطبرـي في التفسـير: نبلوهم بما يحبـون وبـما يكرهـون، نختبرـهم بذلك لنـنظر كـيف شـكرـهم فيما يـحبـون وكـيف صـبرـهم فيما يـكرهـون، ثم إـلى ربـهم يـرـدـون فيـجازـون بـأعـمالـهـم حـسـنـها وـسيـئـها أـجـمـعـينـ.

* * *

لو شاء الله أن يخلق عالـماً بلا شـر لـ فعلـ، ولكن أـين الاختـبارـ؟ إنـ الحياة القـصـيرة التيـ نـحيـاـهاـ فيـ الدـنـيـاـ هيـ إـعـادـاـ لـ ماـ بـعـدـهاـ منـ حـيـاةـ طـوـيـلـةـ خـالـدـةـ، حـيـاةـ مـمـتدـةـ مـنـ الشـقـاءـ أوـ حـيـاةـ مـمـتدـةـ مـنـ النـعـيمـ، فـكـيفـ يـعـرـفـ مـنـ يـسـتحقـ الشـقـاءـ وـمـنـ يـسـتحقـ النـعـيمـ؟ ثـمـ إـنـ النـعـيمـ درـجـاتـ وـطـبـقـاتـ، فـكـيفـ يـفـرـزـ النـاسـ وـكـيفـ يـوزـعـونـ بـيـنـ الـدـرـجـاتـ وـالـطـبـقـاتـ؟ إـنـهاـ كـالـشـاهـادـةـ التيـ يـحـمـلـهاـ المـرـءـ بـعـدـ امـتـحانـ الثـانـوـيـةـ الـعـامـةـ (الـبـكـالـوـرـيـاـ)، فـمـنـ حـازـ الـدـرـجـاتـ الـعـلـىـ دـخـلـ أـفـضـلـ الـكـلـيـاتـ وـعـمـلـ مـنـ بـعـدـهاـ فـيـ أـفـضـلـ الـمـهـنـ وـأـكـثـرـهـ دـخـلـاـ وـوـجـاهـةـ، وـكـلـماـ قـلـتـ درـجـتهـ فـيـ الاختـبارـ هـبـطـتـ درـجـتهـ فـيـ الـكـلـيـةـ وـالـوـظـيـفـةـ، حـتـىـ نـصـلـ إـلـىـ أـفـلـ الـدـرـجـاتـ وـأـدـنـيـ الـطـبـقـاتـ.

هـذاـ هوـ السـرـ، فـمـنـ أـدـرـكـهـ كـانـ الشـرـ خـيـراـ لـهـ وـمـنـ لـمـ يـدـرـكـهـ كـانـ الـخـيـرـ شـرـاـ عـلـيـهـ. إـنـ الـحـيـاةـ كـلـهاـ امـتـحانـ بـخـيـرـهاـ وـشـرـهاـ وـهـيـ مـقـدـمةـ لـمـاـ بـعـدـهاـ، وـمـاـ بـعـدـهاـ هوـ الـحـيـوانـ، الـحـيـاةـ طـوـيـلـةـ خـالـدـةـ الـتـيـ لـاـ نـهـاـيـةـ لـهـاـ وـلـاـ زـوـالـ؛ قـالـ تـعـالـىـ: {الـذـيـ خـلـقـ الـمـوـتـ وـالـحـيـاةـ لـيـبـلـوـكـمـ} وـقـالـ: {وـمـاـ الـحـيـاةـ الدـنـيـاـ إـلـاـ لـعـبـ وـلـهـوـ، وـلـلـدـارـ الـآخـرـةـ خـيـرـ لـلـذـينـ يـتـقـونـ، أـفـلـاـ تـعـقـلـوـنـ؟} وـقـالـ: {وـمـاـ هـذـهـ الـحـيـاةـ الدـنـيـاـ إـلـاـ لـهـوـ وـلـعـبـ، وـإـنـ الدـارـ الـآخـرـةـ لـهـيـ الـحـيـوانـ لـوـ كـانـوـاـ يـعـلـمـوـنـ}.

الـلـهـ اـجـعـلـنـاـ مـنـ الـذـينـ يـعـقـلـوـنـ وـيـعـلـمـوـنـ فـيـعـمـلـوـنـ وـيـصـبـرـوـنـ وـيـشـكـرـوـنـ، الـلـهـمـ اـجـعـلـنـاـ مـنـ النـاجـيـنـ الـفـائـزـيـنـ فـيـ دـارـ الـنـعـيمـ.

الزلزال السوري

المصادر: